لا تشعل الأضواء

تسنيم محمد

دائمًا ما أتذكر كلمات جدي: "لا تخشَ الأضواء يا صغيري".

كانت الأضواء بالنسبة لطفل مثلي الأمان ولكنه كان يصر على إخباري بأن الشيطان لا يرى في الظلام، يرى فقط في الأضواء، كان يتعجب من خشيتي الظلام لتلك الدرجة وأنا أعلم عن ظهر قلب أن هناك بعض الكلمات مترابطة، مثل: نور.. ملاك، رحمة.. جنة، وظلام.. شيطان، قسوة.. نار.

لذا كان حديثه دائمًا حديث خرف بالنسبة لي، كان ينتابه الجنون إذا أشعل أحدهم الضوء، ورغم ذلك غرفته كانت دائمًا مرتبة، لم يسكب الماء أو الطعام يومًا على ملابسه، حتى أنني كنت أظنه كفيفًا أو عميل مخابرات. الحكايات والفضول في مخيلتي كانا لا حد لهما.

سألته ذات مرة وأنا طفل: لماذا يا جدي تخشى الأضواء لتلك الدرجة؟

حينها أخبرني بسر خطير على حد قوله، أخبرني بأن بعض البشر حينما يولد ينزل على الأرض ملاك ويأتي من عالم الشياطين شيطان، وظيفتهما مختلفة عن وظيفة غيرهم من بنيهم، يتحاربان ويتصارعان، كلٌ منهما يراهن على أن المولود سيتخذ جانبه دون تدخل أو تأثر من جانب أيٍ منهما حتى يوم مماته.

أخبرته أن الأمر محير مادام الاثنان لن يتدخلا في قدر المولود بأي شكل، إذا لماذا نزلت الملائكة وجاءت الشياطين؟ ولماذا يحدث هذا مع البعض فقط دون الآخر؟

أخبرني بأن هناك البعض يولد نتيجة لأعمال سحر أسود، ولدوا ليتحملوا خطايا آبائهم أو أمهاتهم نتيجة لصفقات مع الشياطين، ولا تتم الصفقة دائمًا ببنودها المتفق عليها.. فيأمل الشيطان أن يتخذ ذلك المولود درب والده أو والدته ويحاول أن يتمم الصفقة أو يأتي بصفقة جديدة يضمن بها أن المولود لن يمس الجنة أبدًا، فجميع الصفقات التي تعقد مع الشياطين يكون هدفها هو أبدية الطرف الآخر في النار وإرضاء غرور وطمع الطرف البشري في الدنيا. قد يكون العيش

لآلاف السنوات مع الجاه والأموال أو قدرات خارقة أو غيرها.. صدق أو لا تصدق الأطماع كثيرة، والثغرة الوحيدة بتلك الصفقات والتي تجعل البشر يتهربون من الثمن الذي وعدوا إبليس به هو تسليم مولود من صلبهم ليتحمل تلك الخطايا بدلًا منهم، وبما أن الأطفال يولدون على الفطرة السليمة الخيرة ذلك يجعل وظيفة الشيطان صعبة ولن يتقبل مجرد فكرة احتمالية أن ينجو الطفل الناتج عن صفقة بذل بها جهده لكي ينتهي مصيره بالجنة بدلًا من النار بالنهاية. ورغم وعد الشياطين بأنهم لن يتدخلوا في مصير المولود، إلا إنهم لا عهد لهم.

حتى وظيفتهم المعهودة وهي الوسوسة ليملؤوا جهنم من بني آدم لا يمارسها هذا النوع من الشياطين، فمع أول مولود وُلد لأول صفقة بالتاريخ قام الشيطان بخطفه وحتى الآن يظل مصير ذلك المولود مجهولًا. البعض قال بأن إبليس اتخذه ولدًا وحوله إلى شيطان والبعض قال أنه جعله يحتفظ بهيئته البشرية وأنه حيٌّ حتى الآن لمهمة لا يعرفها أحد من البشر قط، ربما إبليس فقط من يعرفها، وأنه منذ خطف ذلك المولود وأصبحت الملائكة تنزل على الأرض لتأخذ

حيطتها وتتأكد أن المواليد لن يؤخذوا بذنب ذويهم وحتى لا يتكرر ما حدث مع المولود الأول لأول صفقة بين شيطان وبشر.

أتذكر ردة فعلي على كلماته، خفت كثيرًا. كان أبي دائمًا يخبرني بأن جدي عقله ليس معه، أصابه الخرف، كل تلك الأشياء كنت أعلمها ولكن حتى مع تصرفاته الغريبة لم أره مجنونًا قط، خاصة وأن كل ما ذكره موجود، نعم توجد الشياطين وتوجد الملائكة ويوجد سحرة وسحرٌ أسود ولكن تفاصيل كتلك لم أعرفها يومًا. حينما أخبرت أبي ضحك كثيرًا رغم مظهري الخائف والحزين، ثم احتضنني وأخبرني أن تلك مجرد قصة كان يرويها جدي له وهو صغير، ثم تنهد أبي وأخبرني بأن أترفق بجدي فهو لم يكن هكذا بالماضي. أنا أيضًا أعلم بأنه لم يكن هكذا بالماضي، لم يبدأ هذا الأمر معه سوى وهو بالثمانينيات، هذا ما أخبرني به جدي.

بعد عدة ليالٍ كان لا زال كلام جدي يتردد في مسامعي، وخاصة ذلك السر الأهم الذي أخبرني به ولم أخبر به أحدًا حتى أبي. كيف يكون جدي مولودًا لأب عقد مثل هذه الصفقة؟ ولماذا رغم أنه أصبح

بالتسعينات من عمره ما زال يلاحقه ذلك الشيطان؟ ما الذي حدث ليتركه ملاكه دون حماية؟ ولماذا شيطانه يراه فقط في الأضواء؟ ولماذا عاد شيطانه بالثمانينات على وجه التحديد بعد أن تركه؟ ربما لأن صفقة والده كانت تحتوي على الرؤية فكان يستطيع رؤية ما يدور بخلد الفرد فور أن يرى عينيه، ويستطيع أن يرى في الظلام، بل عينيه كانت درع حمايته طالما كان بالظلام ولم تبدأ تلك القدرة بالظهور عنده سوى وهو بالثمانينات.

لا شيء بدا منطقيًا من حديثه لصبي بمثل عمري. المشكلة هي أنني كنت أخشى الظلام وأصبحت أخشى الأضواء كذلك. لا شيء أراحني في تلك الفترة فقررت أن أعرف إن كان جدي صادقًا أم لا، فتسللت إلى غرفته وأشعلت الأضواء وهو نائم، لم يحدث شيء على الإطلاق، تنهدت براحة ثم عدت إلى غرفتي لأفيق بالصباح على أخبار فقدان جدي لبصره، على ما يبدو قد فقأ عينيه بسكين.. وقتها فقط فهمت. كان الشيطان لا يسعى خلفه وإنما خلف عينيه، كان يستطيع جدي حماية نفسه وهو بالظلام، ربما استخسر إبليس تلك الهبة بإنسان

لم يعقد معه صفقة وقد ينتهي أمره بالجنة، ما أعرفه هو أن الأيام التالية لذلك اليوم كان جدي مشغولًا بالتأقلم مع وضعه الجديد، وأنا مشغول بتأنيب نفسي، فلم أجرؤ أن أذهب لأراه ولو لمرة.

أتمنى لو أن جدي لم يخبرني بتلك القصة، وقتها كانت الطاعة العمياء هي مذهبي، بالنقطة التي أثار بها فضولي وخوفي تسببت أنا بكارثة كبيرة.

بعد مرور أسبوع جاء إلى غرفتي.. اعتقدت أنه كان سيوبخني ولكنه احتضنني عوضًا عن ذلك، أخبرني بأنه لم يشعر بالحرية والراحة أكثر من شعوره بها تلك الأيام، أخبرني أن كل شخص وُجِد على هذه الأرض هو معجزة بحد ذاته وبأن الأطفال يستطيعون فعل أشياء لا يستطيع غيرهم فعلها.

لم يقضِ جدي الكثير من الوقت معنا فقد توفي بهذا العام، ولكنه عاش بهذا العام ما لم يعشه منذ أن ظهر ذلك الشيطان بحياته؛ ابتسم أكثر وضحك أكثر وروى لنا قصصًا أخرى لم تبث الرعب بقلوبنا على الإطلاق، أصبح لا يخشى شيئًا، لم يحبس نفسه بغرفته، رحل راضيًا

بشوشًا، رحل وتركني بأسئلة كثيرة لم أجد لها جوابًا، ولم أحاول أن أجد لها جوابًا.. حين أتذكره اليوم أمرر لأبنائي قصصًا أخرى رواها لي، أروي لهم قصصًا عن كيف أن الشيطان كان ولا زال عدوًا لنا، أروي لهم عن الخير والشر، عن ألاعيب الشياطين وكيف أنهم وسوسوا لي ولجدي مئات المرات ولم نستجب لوسوستهم بعض الأوقات وكنا نستجيب أوقاتًا أخرى ولكن نعود لنستغفر ونتوب، أخبرهم بأن استحقاق النار والجنة بالفضل قبل العدل وأن الله رحيم وغفور.